مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد الثالث عشر – العدد الأول، ص:1-27، يناير 2005م

متاهـات الحداثـة بيـن الاتبـاع والابتـداع

موسى إبراهيم منصور أبو دقة
قسم اللغة العربية - جامعة الأقصي
غزة – فلسطين

ملخـص: حـاورت هذه المقاربة النقدية الحداثة الأدبية في الأدب العربي ، وكيفية تأثرها ومثاقفتها للحداثة الأجنبية ، وكونها أصبحت متكأ وملاذاً هجع تحت ظلاله بعض أدعياء الحداثة .

كما تناولت المتراكبات والمتراكمات الحداثية التي أحدثت ثورة شاملة في طرائق التفكير العربي ، دون أن تحدث تغييرا في الوعي ، إذ ناقشت مقتضياتها الفنية ومساربها الأيديولوجية ، وأنساقها المعرفية ، وآفاقهـا القطيعـية ، وآلـيات تشكلها ، وآراء كبار النقاد فيها من الشرق والغرب ، إذ يكاد الإجماع على تعـريف أو تعـريفات ، أو إطار يحدد سمتها وخصائصها من الأمور صعبة المنال ، حيث إن التغايرات والإحالات سمتها الأبرز .

كما قدمت هذه المقاربة على إشكالياتها ، بالنقد والتحليل ، بقدر جهد باحث محدود يحاول أن ينتصر للحقيقة الأدبية خلال مواقف بلورتها؛ مفردات الخطاب الحداثي .

Modernization's misconcept between advocation and creation

Abstract: This research tries to approach critically the aconcept of modernization in Literature being a problematic area necessitates various continuos inquires , every one of which can be a dilamma has implied different artistic disadvantages and distorted artistic values which imply comflicting difference that doesn't cope with any kind of difference which longs for accurateness and truth.

The study presents nearly a reconcilation between all contrastive meanings related to the term ' modernization ' by which the researcher approaches a responsive a chievemint to the Arabic mentality and his atistic taste along with its theories, aspirations , heritage , reality or even agony and torture , in a time in which some of our literary men could not confront that forgein thinkers who practised on us their explainations and hypotheses and even their choices .

Hence , this paper gives an example of defeat to the western thought related to the modernizational concepts with all of its negative interpretations.

مقدمة

مـن قبـيل مصـادرة السؤال الذي يفترض إجابة عن سبب اختياري لهذا الموضوع ، وموجـبات تـناول هـذه المقاربة النقدية للحداثة ، في الوقت الذي تناولت فيه كتابات كثيرة هذا الموضـوع ، علـى اخـتلاف مشاربها ومنازعها ، ومستوياتها المنهجية والعلمية ، حيث تتراكم

التغيرات الحداثية وشروط نفي الوعي الفني فيها بشكل كبير دون أن ترافقها إجراءات فنية نقدية تخضع هذه التغيرات والشروط لمعايير جمالية خلاقة.

أسارع إلى القول ،وبحذر من إغراءات الطريق ، وتوجس من مناوشات السلب ، وغياب المـنطق لدى أتباع الحداثة : الحداثة التي تتمنع على الأدباء ، على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم ، وأجناسهم الأدبية ، بأدواتها وآلياتها وأصعدتها وأبعادها وأوهامها ومفاهيمها ، ومنزلقاتها ، الأمر الـذي يجعـل مـن تمنعها تمنعاً غير محمود ، إذ تشكل كل ركيزة فيها معضلة ، تعرقل أنشطة الممارسـة الفنية ، فيصبح الاشتغال بصياغاتها وأنظمتها كنظرية أولى من الاشتغال على أسسها وركائزها ، فتحقق هذا الاشتغال العالمي بها ، على نحو لا يستطيع أي فرد ، يثق بقدرته العلمية أن يلم بشواردها دون نقصان أو إهمال ، كما يستدرج إلى الولوج في مناطق ذات حساسية عالية فـي تفاعلاتهـا وأصدائها الضاجة ، سواء تعلق ذلك بمفهوماتها أم بتناقضاتها ، أم بتوتراتها أم بتغيراتها الدؤوبة.

وكـان لهـذه المقاربـة النقدية قراءة فاعلة ومنتجة للحداثة ، تحاور الوقائع ، وتستنطق بعض المسكوتات ، وتفكك التركيبات الأيديولوجية ومربوطاتها ، وتسقط الحتميات الفنية بوصفها مجـذرة ومؤسسـة للحداثة ، والتي تقوم على فروض يأخذ الخطأ منها بالنواصي والأقدام ، وفقاً لمـنظور منهجـي ، يؤسـس للحجج والبراهين موضعاً ، ويفسح للعقل مساحة ، ويعطي للذوق الجمالي نصيباً ، مستنطقاً الصمت الذي آثرته ثلة من النقاد ، رغبة في الاحتماء من رهبة الحداثة وطغـيانها ، أوخشـية من مناهضتها ، أوطمعا في تحقيق الحرية الحيادية ؛ لتحجب عنهم صبغ الـتهم ، بالرجعـية أو السـلفية أو ما سواهما ، في الوقت الذي يمارس فيه الحداثيون طقوسهم الأيديولوجية دون أن ترهبهم مشاعر غضب الضعفاء أو عجز الأتقياء .

ومع هذا وذاك فقد أفادت مقاربتنا النقدية من دراسات كثيرة ومتنوعة حول الحداثة . بل لا أزعم أن هذه المقاربة قد قالت قولا تستغني به عن دراسات مهمة أسهمت في هذا المضمار ، ولكـنها تفتح الباب مشرعاً أمام العقل ، لمن أراد أن يلج فضاء الحقيقة ورحابتها ، ليكشف زيف الواقع وفساد الذوق ، الذي يعمد لطمس كل ما يسمح لذائقه فنية خلاقة ، بممارسة تذوقها الجمالي الفنـي،دون الاستجابة لصيغ التكميم أو الخضوع لما تقتضيه فروض التبعية للشرق أو الغرب ، التماسـاً للرضـا حيناً، وتأسيساً أيديولوجيا- أحياناً- لا يسمح لنظرياته بالممارسة إلا من خلال إمكانات و تقانات فنية حداثية .

على الرغم من تعدد التعريفات ، والنماذج والآليات والتحويلات ، والتأويلات والانزياحات الـتي تدعـو إلـى فهم الحداثة بعقلنة ، أو بفنية رؤوية تطمح لرسم حدود المعنى المراد تحقيقه

لمقـولات ونظريات ومناهج الحداثة ، إلا أن ممارسات وألاعيب الكثير من الحداثيين تقف حائلاً دون هذا وذاك.

وإذا كـان التفكـير الحداثي الفاعل والمنتج ، هو عنوان التجدد والابتكار والتحرر من أغلال التقاليد التي لا تسمح بتأسيس ذائقة فنية تمارس حضورها في العصر الحديث ، فإن مهمته الأولـى تـنطوي على تطوير أدوات الفن والفهم ، لتبرئتهما من عبثية التسلق وتهريج الغربنة و ركاكـة الأسـلوب وغموض المعنى ، وهشاشة البنية ، والخلط بين ما هو شعر وما أريد له أن يكون شعراً ،و بين ما يحمل في أغساقه هوية ثقافية ، لها ملامحها ونقاؤها ، وصفاؤها ، وبين ما هـو مخـترق في عمق هويته ، مشتظ في ملامح صورته ، لا ينفك عن إنتاج التفلت ، والتفكك للأنسـاق المعرفـية الموروثة ، الأمر الذي يجعل من المتعذر كشف حقيقة انتماء الأديب لتراث بعيـنه ، ولا أقصـد أن يلتزم بتراثه دون التراثات الأخر ، بل إن من أهم فروض الحداثة الحقة والجـادة ، أن يحـاور تـراث غـيره ، دون أن يتـنكر لأصالة تراثه ، أو يعمل على مقاطعته وتهميشـه، شـعوراً بدونيته ، أو رغبة في تبعية لها امتداداتها في تحقيق شهرة أو غايات تفتقر لأدنى أسباب الأصالة الثقافية والحضارية.

إذا كانـت دواعـي التغيير والتطور ، وضرورة مواكبة العصر ، وفروض المعرفة ، تستوجب علينا أن نحاور الحداثة ، فإن الحداثي الجاد الذي يسعى إلى تأسيس حساسية أدبية جديدة ـ وفق تقانات فنية ـ لا يقطع صلته بتراثه ، كما " يجب أن يبقى خيط يربط بين القديم والجديد، و يجب أن تبقى بعض ملامح القديم في الشيء الذي تسميه جديداً ، وعلى شعرنا ألا يكون مسخاً غربـياً في ثياب عربية ، أو شبه عربية، يجب أن نستفيد من أحسن ما في تراثنا الشعري ، في نفس الوقت الذي نستفيد فيه مما حققه الغربيون ... في عالم الشعر " (1)

هـذا الخطـاب الحداثـي الذي يقدم هذه الجدلية ، القائمة على فنيات الصوغ ، ومحاورة الأنساق الشكلية والمعرفية ، تبعث روحاً جديدة لا تهدد عمقها التراثي ، في الوقت نفسه ، لا تقدم شـعارات فنية مشوهة ومشبوهة ، ولا طبيعية حلولية تجعل من انبعاث الروح الإبداعية للشعر ، مـردها إلـى ما ينتجه الغرب ، فتجعل من استيحاء أنماطه الفنية نموذجاً قابلاً للتكرار في أدبنا العربي "والحقيقة أن الناظر في مثل هذه الدراسات ، يكاد يخرج بأن مشروعية الحداثة لا تتأتى مـن بنية المجتمع العربي المعاصر ، بقدر ما تتأتى من التأثر الثقافي النخبوي بالغرب الأوروبي سـواء أكـان ذلك على صعيد التجديد الإيقاعي، أم التصوير الفني ، أم التعامل الأسطوري ، أم الموضوعات الشعرية" (2).

ولا يمكن أن نفهم النقلة من الحداثة إلى ما بعد الحداثة ، دون افتراض مؤكد لاستيعاب الأدباء مـن الشـعراء والـنقاد والفنانين العرب -خلال الحقبة السابقة للحداثة- كونها ضرورة شرطية للانتقال إلى ما بعدها.

ويصح هنا السؤال الاعتراضي ، الذي يوفر لشرط الاستيعاب تجسيماً واستحواذاً للحداثة ، وبوصـف الاسـتيعاب مـتعلقاً به ، وهو: هل اتفق القوم في الغرب والشرق على تعريف بعينه للحداثـة ؟! أم أن إدراك تعريف أو تعريفات محددة أمر لا يمكن حسمه بالتقيد أو بالتحصيل؟! فغدا تعريفها مطلقا ، بوصفها اللامتناهي من الزمن أو المعرفة والعلم ، أو الفن وجمالياته ، فهي -جميعاً- صاحبة الحق في تعيين تعريف خاص بالحداثة ، ما دامت غير متعلقة بوضعية معينة، أو بجنس معرفي ما ، فإن مشروعية الاختلاف حولها سيبقى قائماً ، بل إن عملية تجاوز تعريفها بشـكل ضـرراً حداثـياً ، يفسـح الرؤية أمام مراحل فنية غير حاتمة لضرورة الالتزام بالسياق الـتطوري الطبيعـي الـذي تسير فيه الذائقة الفنية ، سواء أكان ذلك في الأدب الغربي ـ منشئ الحداثة ـ أم في الأدب العربي .

هـذه المسـوغات التي تبرر عدم الاتفاق على نحو نهائي ، لتعريف أو تعريفات للحداثة ، تجعل منها موئلا فنيا في منتهى التعقيد ، غير قابلة للملمة المتشتت أو جمع المتفرق .

كمـا أصـبحت مسـاءلة الـنص مسألة تتسم بكثير من المأزقية ، التي لا تحتكم لماهيات أو ما ورائـيات أو إحـالات ، باعتبارها علامات تنبئ بوجود تقانات مجازية يشترك في كشف إنتاج دلالتها كل من يقرأ النص ، لذا تصبح الأسفار العقلية والهوامش النفسية ، والأحاسيس الشعورية، ذات مشروعية في الاختلاف والتناقض ، لا تقبل أن تحتكم لحكم من حكمي تمييز الحق : الخطأ أو الصـواب ، إذ ما يمكن تخطئته عند فئة أوشخص أو مذهب يكون عين الصواب عند غيرهم، والعكس صحيح.

بهـذا المعنى يحسن قراءة النص الحداثي ، وفقاً لقراءات متعددة لحداثات متباينة ، تسقط كل واحدة منها منطق التفاضل عن غيرها ، كشرط تقييمي سواء أكان معرفياً أم جمالياً .

وبقـدر مـا نحـتاج إلى قراءة فاعلة ومنتجة للنص ، يتحتم علينا معرفة درجة تواطؤ الآلـيات والأدوات التـي تم توظيفها في هذا الحقل الحداثي ، ومنطق وجودها في هذا السياق ، الذي لا يكف عن هتك سر تبعيته للغرب ، سواء أكان ذلك على صعيد التصورات أم المفاهيم أم الحساسيات الفنية ، وبما ينضاف إليها من صور نفي للمعرفة العقائدية وغيرها .

يستهل (ألان –تورين) في كتابه نقد الحداثة ، بقوله :" من المستحيل أن نطلق كلمة "حديث" على مجتمع يسعى قبل كل شيء لأن ينتظم ويعمل طبقاً لوحي إلهي أو جوهر قومي ...فالحداثة تستبعد

الغائـية. إن العلمـنة وإزالة سحر الأوهام ، اللتين يتحدث عنهما (فيبر) ، واللتان تحددان الحداثة باعتبارها عقلنة، تبرزان القطيعة الضرورية مع الغائية الدينية التي تنادي دوماً بنهاية التاريخ... تحـل فكـرة الحداثـة ، فكـرة العلم محل فكرة " ا "(جل في علاه) في قلب المجتمع وتقتصر الاعتقادات الدينية على الحياة الخاصة بكل فرد" (3)

إن إبـدالات الحداثـة وتسـاؤلاتها ، وانقطاع سياقاتها المعرفية وغياب رؤيتها الفنية الواضـحة ، تجعل كل من يتعامل معها يحتسب لنفسه مكانة تؤهله للخوض في غمار تجربتها ، دون أن يكـون لديـه تصـور ثابت ، يتمنهج به، فيحدد له الإطار المفهومي الذي يحفظ له حق التنظير أو التطبيق ، يقول (أدونيس) :" الحداثة رؤيا جديدة ، وهي ـ جوهريا ـً ، رؤيا تساؤل واحـتجاج: تساؤل حول الممكن، واحتجاج على السائد. فلحظة الحداثة هي لحظة التنوير ، أي التـناقض والتصادم بين البنى السائدة في المجتمع، وما تتطلبه حركته العميقة التغييرية من البنى التي تستجيب لها وتتلاءم معها .(4)

ويـتوارد هذا الفهم والحداثة مع شيء يسير من الاختلاف عند بعض منظريها ؛ ليصلوا إلى نتيجة أكثر تطرفاً ، تقوم على اختراق السياق الأدبي بجمالياته؛ ليتعدى لأكثر المناطق حرمة وقدسـية فـي نفس الإنسان، يقول (كمال أبو ديب) في تصور تعريفي للحداثة :" الحداثة انقطاع معرفـي : ذلـك ؛ لأن مصادرها المعرفية لا تكمن في المصادر المعرفية للتراث ، في كتب ابن خلـدون الأربعـة ، أو في اللغة المؤسساتية ، والفكر الديني ، وكون ا مركز الوجود ، وكون السلطة السياسية مواد النشاط الفني ، وكون الفن محاكاة للعالم الخارجي .

الحداثـة انقطـاع ؛ لأن مصـادرها المعرفية هي اللغة البكر ، والفكر العلماني ، وكون الإنسان مركز الوجود ، وكون الشعب الخاضع للسلطة مدار النشاط الفني ؛ وكون الداخل مصدر المعرفة اليقينية إذا كان ثمة معرفة يقينية ، وكون الفن خلقا لواقع جديد ."(5)

وإذا مـا أردنا أن نمضي مع هذه المقولة إلى غايتها ، ألفيناها تسوغ لنفسها حق التمرد اللامتناهـي على المعتقدات والمعقولات ، نظير تأسيس أنساق معرفية جديدة ، قابلة للرفض دون تمـنع ، وللاسـتئناف والخلخلـة دون اسـتقرار ، بل جدتها شرط لنسف مسبوقاتها ، وذواتها ، ولواحقهـا ، ومحصـلاتها . هـذا يعنـي أن صياغة التجاوز والهدم دون البناء ، آلية حداثية ، "الحداثـة، رحلـة اخـتراق وانـتهاك لا تنـي ، ومشروع كشف وريادة لا يهدأ . الحداثة هي -جوهـرياً- روح البحـث والاكتناه في عالم بدأ فجأة جديداً بكل ما فيه ، وهو بحاجة أبدية إلى الاكتناه والكشف. والحداثة ـ ضمنياً ـ هي رفض للإنجاز أو القرار ، أو للوصول ... والحداثة، في جوهرها ، هي التعبير الأسمى عن نزوع الإنسان إلى رفض السلطة ." (6)

النتيجة التي يراد لنا أن نستقبلها من خلال هذه التعبيرات الأدبية الحداثية ، تفكيك الأنساق المعرفـية ـ أياً كانت ـ إلى وحدات صغيرة ، ذات أبعاد متنوعة ، قابلة للتلاشي ، والجمع وفق تعالقـات واعتـبارات أدبـية جديدة ، تختلف في- وتناقض أحياناً - مستويات تفرقها وجمعها وتلاشـيها ، وفقـاً لتحولات الخطاب الأدبي وتأويلاته ، دون أي اعتبار لوجودها -مسبقاً- في منظومة كلية لها جذرها الدلالي وعمقها الجمالي ووظيفتها الإجرائية الأصلية .

ولم يكن من قبيل المفارقة ، ولا غيرها أن يتفق عدد غير يسير من دعاة الحداثة ، للدعوة لهـذه الـرؤية ، وهذا السبيل . مثلاً :" (عبد السلام المسدي) يرفض تصور احتمال البحث عن نظـام شـامل كلي ، لحدود الحداثة ، ويرى أن محاولة ضبط النواميس والقوانين المستحكمة في مفهـوم الحداثة ، على المسار الحاضر والتاريخ الزمني ، عملية مخطئة جوهرياً ، فهو يعتقد أن بوسعنا أن نستوعب الحداثة ضمن ما يسميه بالمنطلق الثنائي ، القائل بأن الحداثة حداثتان : حداثة الـتجدد ، أو التجديد في المدلولات دون دك حواجز القوالب المستوعبة له ، وحداثة التجدد ، أو الانسـلاخ التاريخـي المـتحول علـى مستويين : مستوى المضامين ، ومستوى تفجير القوالب الصياغية أو الأدائية ." (7)

إن رصـد بعـض صـور الحداثـة وخطابهـا في الأدب العربي ، يدل على أن تناديا أيديولوجـياً، يحـرص بشتى السبل على إعلاء النبرة التفكيكية ، المستوحاة من الآداب الغربية ،دون أن يكـون لأدبـنا العربي ومجتمعنا خصوصيته التي تنداح في عمق تراثه الديني والأدبي والاجتماعي .

وممـا يـدل علـى أن القصد هو ذلك، ما يصرح به (كمال أبو ديب) :" الحداثة ، في كل تجلـياتها ، وعـي ضـدي حاد للغة ، وبالتخصيص ، لأزمة اللغة . في هذا الوعي ، تبدو اللغة أرضـاً خراباً ، ساقية جفت ولم يبق في قاعها سوى الرمال المتشققة ، شجرة يابسة في صحراء رماديـة ... لغة مكدسة محشوة بالسلطة ، لغة يثقلها تاريخ الأيديولوجيات السلطوية التي صنعت تـاريخ الـثقافة .هكـذا تـبدو اللغة عبئاً هائلاً ، قوة ضخمة من قوى الفكر المتخلف التراكمي السلطوي."(8)

بهـذا التصور الرؤيوي للحداثة ، يحدد (كمال أبو ديب) مهاداً نظرية تستند في كثير مـن معايـيرها على أصول أجنبية ، ما يؤدي إلى حدوث انشقاق وانشراخ لشروط المحاورة مع الـتراث العربي - وفي أغلب الأحيان - يسعى لنفيه ، وإن كان هذا النفي ملفعا بخطابات وآليات مدجنة باندفاعات فنية ، تبدو في ظاهر أمرها رغائب حداثية ، تطمح نحو الانعتاق والانفلات من قيود التراث والتقاليد ، ولكن بمراجعة لا تحتاج إلى كثير من التعمق ، نكتشف بأن هذا المدجن-

بجميع صوره- ليس مجرد بنى تعبيرية وتشكيلات لفظية،أوتقانات فنية ،أو استعارات تصويرية ، تقصـد الـتجاوب مـع روح العصر وإملاءاته الفنية ، أو النفوذ إلى رؤية العالم بمنظار يتناسب ووعيه العلمي وطرحه الفكري . لو صح هذا بوصف هذه الأمور جوهر الحداثة ولبها ، لكانت الإحاطة المعرفية بها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفاعلية اللغة ونشاطها الإبداعي ، دون الشعور بعبء الـثقل الأيديولوجـي للألفـاظ ، وكأنها متهمة ، مما يؤدي إلى زعزعة الثقة بقدرة الألفاظ على الانخـراط فـي البناء الفني ، وفق جماليات ، تتجاوز نمطية التراكم والتكرار ، وصيغ التقليد . وفـي هـذا السياق يدلي (عبد الرزاق عيد) بشهادته على الحداثة ، بقوله : " إن البلبلة والتشوش سـمة ممـيزة للحداثة التي تريد أن تنطوي على وجود بدون وجود ، وعلى نص بدون نص ، وعلـى سؤال بدون سؤال ، ولذا فلن يستغرب في هذا السياق أن نجد الكاتب يؤكد -باستمرار -علـى أن الـنص مغلق مستقل مكتف بذاته... بل إن التناقض يبلغ ذروته عندما نجده يؤكد في صـفحة ما ينقضه في الصفحة الثانية ."[9] بهذا المعنى تشكل الحداثة -على ما يتخيلها كثير من مـنظريها - ضربا من ضروب القول ، غير الخاضع لمعايير فنية ، سواء أكانت تختص بالوزن وتفعيلاته ، أم بالصور الجمالية وتشكيلاتها أم بالمضمون وقصدياته ، الحد الذي يدفع بعضهم إلى تـبرئة الحداثـة مـن أي شكل من أشكال الالتزام . يعلن (أنطون مقدسي) ، موقفاً واضحاً تجاه الحداثة :"هي اللا- ذات ، اللا أساس ، اللامعقول ، واللا ذاكرة ."[10]وأحسب أن الأديب (أنطون مقدسي) بصفته من أوائل الكتاب العلمانيين الحداثيين السوريين الكبار ، لا يقصد مطلقاً من توالي الـلاءات أن يظهـر تـبرؤاً من الحداثة لكره لها ، فالأمر هنا يبدو عكسياً تماماً ، " إذ بـدأ (مقدسي) كمثقف قومي عربي يؤمن بالوحدة والحرية والاشتراكية ، وانتهى إلى (لاءات) الحداثة التـي تؤمن بكل شيء على قاعدة انهياراته ، أي من رؤية نضالية رومانتيكية واثقة من فعاليتها الذاتـية ، إلـى برزخ سديمي ، حيث لا ذات ،ولا موضوع ، ولا مادية ، ولا مثالية، حيث القلق والخوف ." [11]

لا يخـتلف موقـف (المقدسـي) هـذا -فـي جوهره -حول مفهوم الحداثة ، وأشكالها ومتغـيراتها ،عـن موقف (أدونيس) ، الذي بلور أبعاداً تغييرية لا ترتبط بقوانين، أو نماذج ،أو صـيغ فنية، سواء أكانت جمالية على مستوى الشكل أم على مستوى المضمون ، تتفق مع الواقع أم تنقضـه ، أو تنفيه ، تحقق تواصلاً مع التراث ، أم تنقطع عنه ، أو تهدمه ، تسير نحو تحقيق غاية أم تتخبط خبط العشواء ، " اللا محدود ، اللانهائي . هذا مجال الإبداع والشعر هنا سيال أبـدى المفاجـآت . والأشـكال الشعرية هنا بلا نموذج : كل شكل كاف بذاته ، نموذج بذاته . والكائنات هنا تتدافع وتتواكب في المد الخلاق صوب المجهول ." [12]

وأحســب أن هذا المجهول الذي يقصده (أدونيس) ، كان النتيجة النهائية التي توصل اليها (هـيجو فـريدريش) فـي تحليله لتجربة (رامبو) الشعرية الحداثية ، التي حملت قدراً كافياً من التـناقض: " ذلك المجهول الذي لا يمكن أن نملأه بالإيمان ، أو الفلسفة ، أو الأسطورة ... فإن الشـغف بـالمجهول يـؤول إلى تحطيم الواقع . هذا الواقع المحطم سيكون منذ ذاك ، العلامة الغامضة على عدم كفاية الواقع ، وسيكون -أيضاً - علامة على طابع المجهول المستعصي على الإدراك."13 وبسبب هذا الدرب المجهول في مسلكياته ، أخذت الحداثة تفقد شيئاً فشيئاً كل قيمة جوهـرية لكل أيديولوجيا أخلاقية وقيم فلسفية في التقدم ، هذه الأيديولوجيا التي كانت هي أساس الحداثـة في البداية ؛ لتصبح مجرد جمالية للتغيير من أجل التغيير . فهي تلخص ذاتها وتتبلور فـي بلاغـة جديدة ، كما تعبر عن نفسها في لعبة منظومة أو عدة منظومات من الرموز . وفي النهاية فإنها تلتحق بالموضة التي هي –في نفس الوقت- نهاية الحداثة ." (14)

لـم يكـن هـذا المجهول الذي يقصده الحداثيون حالة عدمية ، قبل أن يشهر النص الحداثي وجوده مكتوباً ، إذ إن نزوعاً هدمياً مسكوناً فيه ، يتجه صوب المعتقدات الدينية ، عبر إغراءات التحلـيل ، أو التنظـير ، أو الكشـف عـن حـالات الإبـداع ، فـتأخذ الاستطرادات والآليات والاستقصـاءات الفنية في التأسيس لاختلافات ، أو اختزالات ، أو اتفاقيات، أو انزياحات صانعة مـناخا تظن فيه مهاداً فنياً صالحاً ، لإنتاج حساسية رؤية مناسبة عبر أنساق معرفية غربية ، لا تـتفق مـع معتقداتـنا وتقاليدنا وتراثنا . تقول (خالدة سعيد) :" ترتبط الحداثة ، بصورة عامة ، بالانزياح المتسارع في المعارف وأنماط العلاقات على نحو يستتبع صراعا مع المعتقدات (أي المعـارف القديمة التي تحولت بفعل ثباتها إلى معتقدات) ... وهي تتبلور في اتجاه تعريف جديد للإنسان عبر تحديد جديد لعلاقته بالكون . إنها إعادة نظر شاملة في منظومة المفهومات ، والنظام المعرفي ، أو ما يكون صورة العالم في وعي الإنسان . ومن ثم يمكن أن يقال : إنها إعادة نظر في المراجع والأدوات والقيم والمعايير ."(15)

ولـيس من قبيل المصادفة، أن تبلور (خالدة سعيد) ملامح الحداثة- كما تراها -على نحو يجانب سوء الظن في التحليل، أو التأويل ، تقول :" إذا كانت الحداثة حركة تصدعات وانزياحات معرفـية قيمـية ، فإن واحداً من أهم الانزياحات وأبلغها ، هو نقل حقل المقدس والأسراري في مجال العلاقات والقيم الدينية والماضوية إلى مجال الإنسان والتجربة والمعيش"16

بهـذه الصـيغ الحاسمة التنظيرية الداعية إلى التجاوز ، والتصدع ، والتغيير ، والانزياح المتسارع ، وإعادة النظر في كل ما يمت إلى الإنسان بصلة ، تعلن (خالدة سعيد) وصايتها على حركة الحداثة ، والإبداع بشكل عام ، وإن بدت هذه الوصاية تأخذ شكلاً نقدياً ، يقوم على طبيعة

اقتراحـية غـير ملزمة ، ولكنها في عمق صميمها ، ولب جوهرها ، دعوة قصدية ؛ لنفي الذات وتمـردها على دينها ، وقيمها ، وتراثها ، ولغتها ، وعاداتها ، وتقاليدها ، دون تردد ، أو مناقشة تسـمح بفتح باب التأويل القولي ؛ لتبرئتها من مظان السوء الذي يشكل مسلكاً يلجأ إليه الإنسان حيـن يشـعر بخطيئة رأيه ، وصحة رأي الآخر ، وهذا أمر بدهي الحدوث في العلوم الإنسانية بشكل عام ، والأدب : الشعر والنقد على نحو خاص.

وقد حاول (أدونيس) ـ قبلها ـ أن يؤسس أنساقاً جدلية ، تعتمد في مفاصلها على الهدم العقـائدي، والغوص في الفلسفات الكلامية التي تخترق حجب العقل ؛ لإرغام النموذج الفني على الولـوج في طقوس ابتذالية تنسغ في ظاهر أمرها ؛ لتحقيق حرية التصور والفكر ، ولكنها في حقـيقة أمـرها انـتزاع لشروط الإيمان، وإدخاله فعل الرأي والرأي الأخر :" ا في التصور الإسلامي التقليدي نقطة ثابتة ، متعالية ، منفصلة عن الإنسان . التصوف ذوب ثبات الألوهية . جعله حركة في النفس ، في أغوارها . أزال الحاجز بينه وبين الإنسان ، وبهذا المعنى قتله (أي ا) وأعطـى للإنسان طاقاته . المتصوف يحيا في سكر يسكر بدوره العالم ، وهذا السكر نابع من قدرته الكامنة على أن يكون - هو وا -واحداً . صارت المعجزة تتحرك بين يديه ." (17)

وليقع التواؤم بين ما يريده (أدونيس) على مستوى الهدم ، وما يريده على مستوى النقد ، وليحقق أكبر قدر ممكن من معادلة التوازن بين نسب الرفض والقبول ، ولاحتواء شروط القطعية مـع الحداثة، والتي بدت علاماتها شاخصة في كثير من المؤلفات النقدية ، الحد الذي دفع ببعض الـنقاد أن يخصـص كتـباً فـي نقد الحداثة ، ولضجر بعض كبار النقاد العرب ، على اختلاف مشاربهم الثقافية ، لشعورهم بحالة الاغتراب مع النصوص الحداثية ، والتي بات شروط تصورها فـي الغرب أكثر منه تحقيقاً في اللغة العربية ، أظهروا استيعاباً أكبر لأسباب فشل نجاح الحداثة الغربية في أدبنا ، يقول :" أحب أن أشير إلى أننا أخطأنا ـ منذ البداية ـ في فهم حداثة الغرب.لم نـنظر إليها في ارتباطها العضوي بالحضارة الغربية ، بأسسها العقلانية خصوصاً ، وإنما نظرنا إلـيها بوصفها أبنية وتشكيلات لغوية . رأينا تجليات الحداثة في ميدان الفنون والآداب ، دون أن نـرى الأسـس النظرية والمبادئ العقلية الكامنة وراءها . ومن هنا غابت عنا دلالتها العميقة في الكـتابة وفي الحياة على السواء ." (18) ولكن هذا الكلام- وحده- ليس سراً و لامفسراً ؛ لاشتداد الكـرب بالحداثـة العربية ، إذ إن جزءاً كبيراً من شروط مفهوميتها لم يستوف حقه بعد - مع الإصـرار - بأن مسوغات وجود الحداثة بدهية لا تقبل النقاش ؛"لأن مشكلة الحداثة الشعرية في اللغـة العربية جزء جوهري من مشكلية المعرفة بوصفها علاقة بين الإنسان والمجهول ، ومن مشكلية العلم بوصفة علاقة بين الإنسان والطبيعة، ومن مشكلية التقنية بوصفها عملاً تطبيقياً ...

فهي تفترض بدئياً معرفة الشاعر العربي نفسه بوصفه ذاتاً ، وبوصف هذه الذات لغة ، وبوصف هذه اللغة أداة كشف ، وإفصاح ، وإيصال . هذه الإحاطة المعرفية بالذات ، و التي هي الشرط الأول والبدهي لكتابة الحداثة تعبيراً عن الذات ." (19)

تقـف الرغبة في الحداثة ، والنزوع نحو مواطنها ، والحلول في مرابعها بين إحباطات الـتجربة ، ومحاولاتهـا المـتكررة في تجاوز صيغ الفروق الهائلة بين منشأ الحداثة في الغرب ،وانـبهار النخـب العربـية بهـا ، الحد الذي دفع بالبعض إلى أن يجعلوا أصابعهم في آذانهم ، ويستغشـوا ثيابهم من هذا الواقع المرير ." وأصحاب الحداثة كبارهم وصغارهم يتجاهلون نقائص الحضـارة الغربـية مع علمهم بهذه النقائص ، كأن إيمانهم بتفوق العقل الغربي ونجاح المجتمع العربي بلغ حد الإيمان بقدراتهم على التغلب على جميع المشكلات ." (20)

ولكن هل تبقى هذه الأحكام إنشائية ، لا تخلو من فرضيات مثقلة بالنواحي السلبية ، ذات المدلـولات الفرضية ، التي تسعى بدورها إلى اختراق الحداثة اختراقاً لا يسمح لها بالاقتراب من إيقـاع العصر الذي يدعو إلى اختراق الانغلاقية ، والنزوع نحو الاتصال المتبادل والشامل ؟! أم أن شـرخاً ثقافـياً يحمل- مثقلاً- روحاً انفصامية تسكن الأدب العربي الحديث ؟ يقول (د. عبد العزيـز حمـودة) :" ما الذي أوصلنا إلى ذلك الشرخ ، وذلك الفصام المؤلمين ؟ ماذا حدث حتى وصـل البعض منا في انبهاره بالغرب والثقافة الغربية درجة العماء الكامل ، الذي أفقدهم القدرة علـى الاختلاف ؟ ما الذي حدث حتى وصل البعض ، وسط انبهارهم بالعقل الغربي وإنجازاته ، إلى درجة احتقار العقل العربي وإنجازاته ؟ (21)

لم يكن هذا التسآل إشباعاً لرغبة المبالغة ،أو التكثير عند هذا الطرف أو ذاك ، إذ يلجأ كل فريق ـ بقدر معين ـ إلى توفير ما يلزمه ويتوافق مع ميوله الخاصة ، من حجج، وبراهين، وخـيارات مبدئية ، أو تنظيرية تسعى إلى أن تقدم نفسها على أنها الأكثر والأقوى ارتكازية في عملية البناء الفني .

فإذا ما سلمنا بحق كل فريق في تقديم خياراته الفنية في الحداثة ، وفق أصول منهجية ، و رؤى فنـية سـليمة ، وذائقة جمالية عربية ، تسمح باحتواء ما هو تراثي ، وما هو معاصر ، دون تشـويه لأصالة التوظيف ، أو تجاوز لقيم وأعراف ومعتقدات وعادات وتقاليد ، أصبح لزاماً على جميع الأطراف ـ على اختلاف مشاربهم الثقافية ـ أن يسمحوا بتوسيع دائرة التفكير الفني اليقظ والنشط في آن ، و الذي لا يسمح باختفاء صيغ التراث العربي وحضورها ، و بتشكيلاتها التي تنطوي على إمكانات مبدعة ، ما كان لها أن تكون كذلك ، لولا تحقق تواصلها وجدليتها مع الـتراث ، والذي يشكل ـ وبالضرورة ـ جذرا مؤسساً لأي إنتاج أدبي ، وإن انحصر إلى أدنى

شـكل له في توظيف اللغة فحسب ، هذه الأمور ينبغي لنا أن نضعها موضعاً معايناً حين نتصدى للـنظر في النص الحداثي ، وهي نفسها المعيار الأساسي في التقييم الجمالي، والمعيار الوظيفي ، فهي أمور تقبل الاستغناء حين ترغب في الحكم على الأعمال الفنية والأدبية!

ويدهـي أن النص الحداثي ، والرؤى النقدية التي تتصف بالحداثية صفة تمردية تجاوزية مـن أجل التمرد أو التجاوز ، كما أنها صفة شعارية من أجل الإعلان الإعلامي ، الذي يكشف نوايـا التـبرؤ أكـثر مـن حقيقة الرغبة في مواكبة الحركات الأدبية الغربية، من أجل النهوض بمسـتوى الأداء في أدبنا العربي ، فهي كما أراد لها (رولان بارت) بقوله :" في الحداثة تنفجر الطاقـات الكامنة ، وتتحرر شهوات الإبداع في الثورة المعرفية، مولدة في سرعة مذهلة ، وكثافة مدهشة أفكاراً جديدة ، وأشكالاً غير مألوفة ، وتكوينات غريبة ، وأقنعة عجيبة فيقف بعض الناس منـبهراً بهـا، ويقف بعضهم الآخر خائفاً منها ، هذا الطوفان المعرفي يولد خصوبة لا مثيل لها ولكنه يغرق أيضاً" (22)

ولا أحسـب أن هـذا الانفجـار الحداثي للطاقات وصور الإبداع ، التي أرادها (بارت) سـوى مدخـل محـرك لكيانات تتضمن مستويات مختلفة من الغايات ، التي تتناقض في طبيعة حركـتها ، وسائلها وقدرتها الإبداعية مما يجعل مهمة الإمساك بغاياتها وأهدافها ، وتسجيلها ، وبيـت قصيدها عملية تكاد تكون مستحيلة ، ودونها بيض الأنوق ! وهي من الأمور التي لا يقدر علـيها الأشـداء من رجالات النقد ، فيصبحون في متاهة حلمية بالقوة ، دون كلل من محاولات لاهـثة -حينًا - وضاغطة -أحياناً أخرى - لمحاولة إنتاج ما يمكن أن يصاغ كنظرية نقدية ، أو يـنظم كقصـيدة شعرية ، تكفل درجة ما من الإقناع لدى المتلقي ، الذي عليه- دائماً -أن يوفر لنفسه قسطاً كبيراً من المستلزمات المعرفية ، والنظريات الأدبية ، والإدراكات الواعية التي تسمح لـه بـتجاوز الـتهمة ، التي يمكن أن توجه إليه في حال عدم تمكنه من تجاوز الطبيعة التفكيكية للـنص ، أو للمقاربـة النقدية التي يقصدها المتلقى للفهم ، فإذا بها أكثر تفكيكاً ،وأقسى إرعاباً ، وأنشـط هروبـية ، ومغامـرة ، تتآلف لتتناقض ، تعلو لتهبط ، تقول لا للقول، ترجح فروض الغمـوض ؛ لتعلن عن موقف أشد غموضاً وتنكيلاً . الأمر الذي دفع بناقد كبير (د. عبد العزيز حمـودة) أن يعلـن – بكثير من المرارة والسخرية في كتابه المرايا المحدبة – قوله :" ومما كان يعمق ذلك الإحساس بالعجز تلك الرسوم التوضيحية –يفترض أنها كذلك – والبيانات ، والجداول الإحصائية ، والرسومات المعقدة من دوائر ، ومثلثات ، وخطوط متوازية، ومتقاطعة ، وساقطة، والتي كانت تبعدني- وما زالت حتى اليوم- عن الأعمال الأدبية موضوع المناقشة ، بدلاً من أن تقربنـي مـنها. فقـد كنت أقف أمامها في عجز كامل عن فك طلاسمها ، أو شفرتها كما يحلو

للبنيويين أن يقولوا . وطوال تلك السنوات كنت أنحي باللائمة على جهلي وتخلفي عن اللحاق بركب الدراسات الأدبية والنظريات النقدية الحداثية ، وهو تخاف كنت أقبله عن طيب خاطر، بسبب الأعباء الإدارية التي أثقلت كاهلي لسنوات ، وفي أحيان كثيرة كنت أنحي باللائمة على تدني معدل ذكائي الفطري منه والمكتسب " [23] ،وفي موضع آخر أشد مرارة ، يعلق (د. عبد العزيز حمودة) على تعريف (د. جابر عصفور) للحداثة بقوله :" لا شك في أن محاولته الأخيرة تلك لتعريف الحداثة تتوافر لها كل مقومات الإبهار، فهناك مرواغةالميتالغة التي تلفت النظر إلى نفسها في المقام الأول ، وتتعمد الغموض وعدم الالتزام ، وهما لازمتان من لوازم لغة الحداثيين العرب وغير العرب ، ثم إنها تتطلب الاستعانة الدائمة بمعاجم حديثة في الدراسات النفسية واللغوية والنقدية ؛ لتحديد دلالات المفردات الباهرة إن كان هذا ممكناً" [24]

لم يكن هذا الموقف إنشاء خطابياً ، يقصد أن يقدم نموذجاً يهتم بالكشف عن آليات وألاعيب وإجراءات وشروط الحداثة فحسب ، إذ لم يعد كافياً ، أن نكشف هذا الواقع المرير، وأحسبه لم يعد من الأمور المختلف حولها ، فيحتاج إلى من يكتشفه ، حتى يكتسب خطابنا مشروعية ممارسته ، فالخطاب لا يقوم على حصر الموقف برأي عالم ما ، ولا يقوم على التواطؤ معه ، إلا بالقدر الذي يقدم فيه الحقيقة ، لا سواها ، كما لا أقصد أن أوفر من الأقوال والحجج والبراهين ما أجعلها وزناً يرجح كفة رفض الحداثة على كفة قبولها ، فرفض الحداثة كما يقول (عبد الرازق عيد) :" لا يمكن أن يكون بتجنبها ، إنها قدر العالم بما اقترفته يداه ، فرفضها سينبثق من صميمها ، من تملكها الفعلي لتخطيها ، من تحقيقها لتفكيكها ، من إنتاجها لتدمير الروحية ، والأخلاقية ، والإنسانية ... نتجاوز الحداثة روحياً وجمالياً وأخلاقياً ، وبالمحصلة تجاوز تمثلاتها التجريدية الذاتية الأنطولوجية ، يكمن عبر كسب معركتها لاختراقها من الداخل ، حيث غدت معادلة حداثة -لاحداثه ، كمعادلة وجود -لا وجود ، بغض النظر عن النتائج الكلبية لسعار التعاظم التقنوي الذي يلتهم وجودنا الطبيعي ؛ لينتجنا كوجود مصطنع !." [25]

ولعل أزمة الحداثة لا تكمن في ثنائية رفضها أو قبولها ، إذ إن العقل ، والنقل- معاً- يتفقان على ضرورة وجود حداثة ، ولكن أية حداثة نقصد ، وماشروطها ؟ وكيف نخاص إلى حداثة غير مأزومة ؟ وكيف نوفر لها ذاكرة غير معطوبة ، وثقافة غير مشروخة ؟!

يشخص (وليد منير) واقع الحداثة وأزمتها وأسبابها بقوله :" افتقاد الأصول – العجز عن تمثل المنقول الحضاري – اضطراب المفهوم ، والتباس المصطلح ، إغواء الحداثة في بعدها الشكلي فقط ، الوقوع في دائرة المتشابه ، وانتفاء الخصوصية -عدم القدرة على صهر

الاجتماعـي والسياسـي فـي الجمالي بحيث تأتي صيغة الإبداع قادرة على استيعاب الواقع في صميمها ، أو وصل الذاتي بالموضوعي." (26)

هـذا التغير والتحول في الخطاب النقدي العربي من الحداثة وأزمتها ، له ما يبرره ، إذ لـم يعد التعامل مع أطروحات الحداثة كشكل بريء من أنماط التفكير الفني ، الخالي من غايات أخـرى ، أو كآلـية فنية توظيفية لها قوتها النافذة ، والناهضة في إدارة وإثراء الخطاب الفني ؛ لأنهـا أوقعته في مأزق التقليد ، وإشكاليات المناورة ،" أما الإشكالية الأخيرة التي تثيرها الدعوة للحداثـة العربـية فهـي التـناقض الأساسـي في موقف الحداثيين العرب بين رؤاهم النهضوية المستقبلية، والتي تنطلق من حركتهم إلى الأمام رفضاً للحاضر المحبط والواقع الذي فقد شرعيته، وتمـرداً على التقاليد الموروثة ، وبين محاولة إعادة تفسير التراث الثقافي ، أو استقرائه للوصول إلى تأكيد تراثي لمقولاتهم الحداثية الجديدة ." (27)

لا يعنـي ذلـك أنـنا نسعى إلى تقويض الحداثة العربية ، أو هدم معالمها أو النيل من أعلامهـا، مـن خـلال دورهـا ومواقفهـا ، وعـبر إشكالياتها ، وإن بدت هي الأساس النقدي الاسـتراتيجي الـذي قامت عليه ، والتي أخذت الجزء الأعظم منها كمبررات لظهورها ، تقليداً واتـباعاً لأسباب ظهور الحداثة الغربية ، فبرزت كثورة على التقاليد السائدة ، وتمرد على القيم والأعـراف المهيمنة ،وخروج على المقاييس والمعايير المستتبة . وغالباً ما ارتبطت بموقف عام مـن المجـتمع وأنظمته وقوانينه، بإدانة لما تحفل به من ظواهر التخلف ،والتعسف ، والكبت ، والظلـم ، والتشـويه ... وركزت في المجالات الإبداعية المختلفة على رثاثة الأساليب التقليدية المتـبعة فـيها ، واعتـبرت الأخذ بها والمحافظة عليها خيانة للذات ، وإزراء باللغة ، وتشويها للأدب، والالتزام بمعاييرها والخضوع لشروطها ارتهاناً ، وعبودية ، وعوقاً عن التعبير الصحيح ناهـيك عن الإبداع الطريف ... الأمر الذي يجعل إشكالية التحرر ، والاستلاب تتخطى الأعمال الإبداعية ، لتقيم في صلب النظرة ، أو في خلفية التصورات الخاصة بتحديد الشعري وتمييزه عن اللاشعري ، ويجعل من موضوعه -التحرير على هذا الأساس- مفارقة مفهومية بحاجة إلى إعادة النظر وتعديل لفهمها ، وتصور مسارها" (28).

وتـبقى هـذه الإشكالية تصادق الواقع ، ولا تتعامى عنه ، بل تتخلخل في بنيته ، فضلاً عـن إشكاليات أخر ، تشير في تفاوت نسبي إلى درجة المفارقة المفهومية للحداثة ، الأمر الذي دفـع بناقد جهير مثل (د. محمد عبد المطلب) في مقاربته النقدية (مصادر إنتاج الشعرية) إلى القـول :" إن شـعرية الحداثة- على هذا النحو- كانت متحركة زماناً ومكاناً في كل الاتجاهات المـتقابلة ، فلـم يعـد لها منطق يحاصر حركتها على نحو ما تحدده التجربة ، بل إن الشعرية

استحالات إلى سؤال دائم لا يعرف طريقاً إلى أية إجابة ، وهو ما يجعل النص سابحاً في فضاء معتم ؛ لأنه يؤثر الظلمة وينفر من الإضاءة ، والعتمة تؤثر البواطن أكثر من السطوح ، وتؤثر المجهول بكل احتمالاته الإنتاجية التي توافقه" [29]

هذا الخطل في تحديد معالم الحداثة عندنا مسبوق وملحوق بمتاهة غربية فيها ، وهي بلد المنشأ لها ، على الرغم من ممارسة مفرداتها بقضها وقضيضها ، وبكل قوة وإصرار ، ومعززة بموجبات الحرية ، وهي مآل الإبداع والتفوق ، والاختلاف في آن . يقول (جان بودريار) : "ليست الحداثة مفهوماً سوسيولوجياً ، أو مفهوماً سياسياً ، أو مفهوماً تاريخياً بحصر المعنى ، وإنما هي صيغة مميزة للحضارة ، تعارض صيغة التقليد ، أي أنها تعارض جميع الثقافات الأخرى السابقة أو التقليدية . فأمام التنوع الجغرافي والرمزي لهذه الثقافات ، تفرض الحداثة نفسها و كأنها واحدة ، متجانسة ، مشعة عالميا ، انطلاقا من الغرب . ومع ذلك تظل الحداثة موضوعاً غامضاً يتضمن في دلالته ـ إجمالاً ـ الإشارة إلى تطوير تاريخي بأكمله ، وإلى تبدل في الذهنية[30]

معنى هذا أننا مهما أوتينا من قوة المنطق ، وبلاغة البيان ، لا نستطيع تحقيق كينونة مفهومية للحداثة، تستقصي المنجز الإبداعي، دون الوقوع في احتمالات الظنية الناتجة عن تبدلات في المعطيات الثقافية المتباينة، فضلاً عن إشكاليات التبعية للغرب، "إن الحداثي العربي له حضوران يحرص عليهما قدر استطاعته: حضور في مجتمعه العربي، وحضور أمام مراكز الثقافة الغربية. وحضور في الثقافة العربية واضح: فهو يحارب التخلف، والجمود، والنظم، والمؤسسات، كما يحطم التقاليد اللغوية والفنية، ولكن حضوره في الثقافة الغربية غير بارز ولا مميز؛ لأن هذه الثقافة تمر منذ فترة غير قصيرة بعصر من التجريب في كل ميادين الفكر والفن" [31]

علل (د. عبد العزيز حمودة) ، هذا الحضور المشتت ، بقوله :" يرجع ذلك التناقض في جانب أساس منه إلى افتقار الحداثي العربي إلى فلسفة خاصة به عن الحياد والوجود والذات والمعرفة ، فهو يستعير المفاهيم النهائية لدى الآخرين ، ويقتبس من المدارس الفكرية الغربية ، ويحاول- في جهد توفيقي بالدرجة الأولى - تقديم نسخة عربية خاصة به ، إنها كلها عمليات اقتباس ونقل وترقيع وتوفيق لا ترتبط بواقع ثقافي أصيل، ومن هنا تجيء الصورة النهائية مليئة بالثقوب والتناقضات ."[32]

أيا كانت مبررات توظيف الأطر المنهجية والمعرفية في حداثتنا ، فإن ثمة انحرافات ، وتناقضات تتفاعل- داخليا - في نفور شديد ، مخلفة اهتزازاً عميقاً ،وشرخاً بائناً في الهوية العربية ، شكلت- جميعها- موقفاً مناوئاً للحداثة بمجملها ، مما جعل التعامل معها محاطاً بكثير

مـن الحذر ، وبغير قليل من الشعور بالاغتراب والاستلاب ؛ لأننا حين نستخدم مفردات الحداثة الغربـية ذات الـدلالات التي ترتبط بها داخل الواقع الثقافي ، والحضاري الخاص بها ، تحدث فوضى دلالية داخل واقعنا الثقافي والحضاري ...لأن الهوة بين الواقعين الغربي والعربي واسعة سحيقة ، لا يكفي الادعاء الأجوف بإقامة جسور فوقها لأن ينسينا إدراك الاختلاف . وحينما ننسى ذلـك الشعور بالاختلاف نقع في المحظور ؛ لأننا نتناسى مجموعة من المحاذير التي تجيء مع هـذا الاحسـاس بالاخـتلاف. " [33] فـيما يـبرر (جان بودريار) وجود مظاهر من التناقض، والانحـراف فـي الحداثـة، بقولـه :"تتجلى السمات المميزة للحداثة وضمائرها ، وإشكالياتها، وتناقضاتها بمنتهى القوة في المجتمعات التي يكون فيها تأثيرها التاريخي والسياسي صادماً ، أي في المجتمعات القبلية أو المستعمرة سابقاً او التقليدية". [34] ولا يختلف اثنان على أن رغبة قوية لكـتاب وأدباء العربية في التواصل مع الغرب ، وهي نزعة تأصلت بفعل مجموعة من العوامل من أهمها:

أ- التميز الغربي في التقدم العلمي والمعرفي ، مما جعل محاكاته في كل ما يفرزه المجتمع الغربـي وسيلة يتقرب بها من أراد التقدم الحضاري ، أو الوصول إلى أقصى درجات الحداثة.

ب- الشعور بالدونية بحكم الواقع العربي المأزوم ، وبالتالي الشعور بالعجز والانبهار بكل ما هو غربي.

جـ - وجـود طبقة من التابعين ، من ذوي المؤهلات العلمية العالمية وما دونها ؛ للترويج للفكـر الغربـي ، ومذاهبه ، وأيدلوجاته ، عبر التنقل من منهج إلى منهج ، ومن رأي إلى رأي ، ومـن اختلاف إلى اختلافات ، ومن انقطاع معرفي ثقافي إلى انقطاعات شاملة : مع الدين والثقافة والتاريخ ، ومن هوية واضحة المعالم إلى هويات متعددة ،من ثابت يقيني إلى مـتحولات ومتغـيرات ، تعفـى الإنسان من حالة الاستقرار ، فيبقى قلقاً ، لا يشعر بانتماء حقيقـي لأي شـيء ، متناقض مع نفسه ، دواعي الإحباطات أكثر قرباً لنفسه من أي أمل ، أسـئلته حيرى لا تلقى إجابات ولا تنتظرها ، " الحداثة تنطوي ـ إذاً ـ على قلق لا يريم ، دائم لا يعفو عليه الزمن ، تنطوي على نوع من الهدم المستمر في الزمن دون أن يتحول إلى بنـية ثابـتة ، تـنطوي علـى سؤال مفتوح لا تأتي السنوات بإجابة عنه ، وهذه هي القيمة الإيجابية التي تنطوي على النفي وتجاوزه في نفس واحد"[35].

ولكـي لا يوصد باب الاحتمالية أمام وجود عوامل أخرى للتواصل مع الغرب، كالرغبة الفعلـية فـي تلقي العلوم ، وتحقيق حالة حوارية تفرضها موجبات الجمع الإنساني في هذا

الكـون ، وحتى لا أقع في إشكال التعيين المطلق للأحكام العامة ، تبقى مرجعيات التواصل ومقارباتـه أكـثر حضـوراً من متعاقبات القطعية وإشكالياتها ، ولكن على الرغم من هذه العوامـل التـي ذكـرتها ، والتي لم أذكرها ، والتي أعلمها ، والتي لا أعلمها ، لا تشكل – جمـيعها - سـبباً قويـاً لنفي الذات ، من خلال استثمار النظريات ، و المناهج الحداثية، وتفعيلها ، وفق أنساق معرفية ، أقرب إلى كونها أطروحات ذوات أبعاد فلسفية ، مغرقة في انحـرافها تجاه الآخر ؛ مما أفقد أية قراءة نقدية قدرتها على التأويل ، الذي يسمح بتعليلات علمـية ، تسـتبعد العمـاء التقليدي ، أو طفح السفسطة اللفظية ، إذ " تعتمد الحداثة المنهج الفلسـفي الـنقدي الذي صاغه(أدورنو) الجدل السلبي negative dialects الذي يعد أسـاس كل نزعة نقدية عميقة للحداثة . [36] ولعل خير من يمثل هذا التيار في نقدنا العربي الحداثي ، (كمال أبو ديب):" ليست البنيوية فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ، ومنهج في معاينة الوجود ... ولأنها كذلك تصبح ثالث حركات ثلاث في تاريخ الفكر الحديث يستحيل بعدها أن نـرى العـالم و نعايـنه كمـا كان الفكر السابق علينا يرى العالم ويعاينه ، مع (ماركس) ومفهومـي الجدلية والصراع الطبقي ، بشكل خاص أصبح محالاً أن نعاين المجتمع كما كان يعايـنه الذيـن سـبقوا (مـاركس) وبعد أن رسم (بيكاسو) كراسيه ، كما يعبر (روجيه غـارودي) ، أصـبح محـالاً أن نرى كرسيا كما كان يراه الذين سبقوا (بيكاسو) . ومع البنيوية ومفاهيم التزامن والثنائيات الضدية ، والإصرار على أن العلاقات بين العلامات ، لا العلامـات نفسها، هي التي تعني، أصبح محالاً أن ترى الوجود، الإنسان والثقافة والطبيعة- كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية" [37]ويبدو أن (محمد بنيس) يتفق مع (كمال أبو ديب) في ضـرورة وسـم الحداثة بالماركسية: "إن الحداثة، لم ترتبط –فقط- بالتحليل النفسي ، ولكن بالماركسية -أيضا - هما عنصران أساسيان في فهم الواقع، والإنسان ". [38] إذاً نحن إزاء طـروح تتجاوز صيغ التنظير الأدبي والفني ؛ لتتبنىأفكاراً ماركسية تارة تبحث عن شكول جمالـية تتمدد متعالية في خطابات أيدلوجية ، تسعى جاهدة لإعادة تشكيل الذائقة الفنية ، والجمالـية العربـية تـارة أخرى ، فتنخرط في أنماط تفكيرها كآلية وكإجراء تسمح لها بالمرور لمعتقداتنا الدينية ، " أصبح نشاطنا الفكري في البنيوية والتفكيك ضرباً من العبث أو درسـاً في الفوضى الثقافية ، وكلاهما نوع من الترف الفكري الذي لا يتقبله واقعنا الثقافي ، ونشـير- هنا- من جديد إلى محاولات البعض أنسنة الدين ، وتطبيق المبادئ النقدية الوافدة علـى النصوص المقدسة . إذا كانت الثقافة الغربية بتطوراتها الفكرية المتلاحقة عبر مئات

السنين ، قد قدمت شرعية ثقافية لهذه المحاولات ، فإن واقعنا الثقافي غير مستعد للتعايش مع هذه المحاولات ." (39)

ولعـل إلقـاء نظرة إرجاعية على الكتابات النقدية الحداثية ، بفرضياتها ومفاهيمها ومصطلحاتها ، دون أن نتسلح بالسفسطة العقيمة ، أو التنابذ المذموم ، أو الغواية ذات الهيام، تكشـف لـنا عـن تداعـيات ، هي في ظاهر أمرها ، وباطنه سلسلة منتظمة من الهوس التجريبـي ، الـذي أسـقط خيار الوصول للحقيقة ، وجعل من التناقض واللامعرفي ، واللا معقول حقلاً معرفياً ناجزاً يستحق أن يؤز النقاد بعضهم بعضاً من أجله .

يقـول (مارشال بيرمان) :" أن تكون حديثاً يعني أن تعيش حياة مفعمة بالمفارقات والتناقضـات... إنه يعني أن تكون ثورياً ومحافظاً في الوقت نفسه ، حياً مؤهلاً للإفادة من إمكانـات جديـدة للتجريب والمغامرة ، مصاباً بالرعب إزاء الأعماق السحيقة العدمية التي تفضـي إلـيها مغامـرات حداثية كثيرة ، تواقاً للخلاق والتمسك بشيء حقيقي ما ، حتى في اللحظة التي ترى فيها الأشياء كلها وهي تتبدد وتتلاشى ." (40)

مـن هـذا المـنظور فإن ما تطرحه الحداثة الأدبية ، يمثل قطيعة كاملة لأنظمة المعارف والمرجعيات ، والأنساق المعرفية ، والمسلمات الفكرية ، والقناعات ، والأيدلوجات دون مسـوغات حقيقية ، لها درجة من التفكير المنطقي ، والعلمي وفي أدنى درجاته ، عدا تلـك المسـوغات التفكيكية، والتشكيكية ، التي تنفجر متشظية من رحم قناعات ، ومسبقات فكـرية ترسف بأغلال العجز ، والقصور . يقول (ما لكم براد بري) و(جيمس ما كفارلن) : " نجـد خلطاً آخر بين المتناقضات يتمثل في المزج بين العقل واللاعقل ، والعقل والعاطفة ، والذاتـية والموضـوعية . وهو خلط ينسف أنظمة الفكر ، ويقلب قواعد اللغة ، كما ينسف العلاقـات بيـن الكلمات ، وبين الكلمات والأشياء ، ويفتح التعبير أمام غير المترابط وغير المنطقي ."(41)

هذه الشهادات النقدية المليئة بالثقة التجريبية للحداثة ، لا تحتسب شروطاً قومية، أو عرقـية أو ديـنـية ، حيـن تـنقد الحداثة ، بل كثير منها يدعو لمناهضتها ، يقول (أنطول كمبانـيون) فـي كـتابه (مفارقـات الحداثة الخمس) :" بأنها كتاب يصيب تقليب صفحاته بالصـداع والسوداوية." (42) فإذا ما أعلن (كمبانيون) صراحة ، في كتابه المذكور آنفاً ، في غير موطن ، هجاء قوياً للحداثة ، لما تحمله من تناقضات في ذاتها ، ومقاومة لنفسها ، يبقى لـبعض النقاد العرب متسع ، ومجال يسمح لهم بعرض تجلياتهم الحداثية ، على نحو يتجاوز حق الابتداء في تأسيس حداثة عربية لها مناطقها الرؤوية الخاصة بها ،" فكانت الحداثة ، منذ

ولادتها ، هياماً نقدياً ، بقدر ما هي نقد وهيام ...كانت هياماً مخدراً يبلغ أوجه في نفي نفسه، ونوعـاً من الهدم الذاتي الخلاق ... ما ميز حداثتنا عن حداثة العصور الأخرى ليس تقديسنا للجديـد والمدهـش على الرغم من أهميتها ، وإنما حقيقة أنها رفض ، نقد للماضي القريب ومقاطعة الاستمرارية ." (43)

وبحكـم فـوارق المنشأ للحداثة ، وفهمها ، ومفهومياتها ، تتنوع مسارات الرؤية ، وتتعدد أشكال الأداء ، والتعبير ، ويبقى تصور ملامحها وتطلعاتها من الأمور المستعصية ، التـي تحـتاج إلـى قـدر كبـير من المجادلات والنزاعات ، والتأويلات ، والاختلافات ، والتناقضات ، مما يند عن فوضى مطلقة ، تشف في خطابها الفني عن نبرة استعلائية خاوية علـى عروشـها ،كمـا أنها تزداد كثافة ، وغموضاً ، وإبهاماً ، والتباساً كلما حاولت حل طلاسمها ، ناهيك عن الوصول إلى غاياتها أو فك شفراتها .

بهـذه الذهنية التغييرية والتناقضية لفلسفة الحداثة ، أصبحت مركزاً جاذباً ، يدور في حلقـة مركـزها الهدم والتشتت ، " سمة الحركة المستمرة اللا نهائية الحركة العابرة أبداً . وكونهـا عابـرة أبداً ، يعني أنها لا تسمح لشيء ما بالتمركز النموذجي ، أو النمطي .وهو تمركز يذكر بفكرة المركزية المنطقية Logocentrism عند (دريدا)ونقده لها ." (44)

هـذه الفلسـفة أصـبحت ملاذاً آمناً ، يحتضن كل من أراد أن يتحاشى العمق الثقافي والجمالي لمصادر التكوين الفني العربي ، وفروض توظيفاته ، وأشكاله ، واستعصاماته التي تشـكل مـنظومة أصـيلة ، عزفت ألحانها أجيال عربية ، نأت بنفسها عن التلقن من الآخر المـرهون بشـروط التبعية والولاء والبراء ، والتي تستوجب -جميعها -رفضاً مطلقاً للذات العربـية ، فضـلاً عن وجود عوامل خفية " لهذا النوع من الهروب إلى الأمام ،هو اجتثاث للـذات مـن صلب نداءاتها ، وانخراط في وهم شعريات تبني ممكنات كتابتها بلغة باردة ، تستعرض جملها كما اتفق ... بدعوى أنها سريالية تارة ، وبدعوى أنها ، ما بعد حداثية تارة أخرى ، دون تساؤل مصائر هذه النظريات ومآلاتها ." (45)

لـوازم هذا الهروب ، في تفاعل موجباته التي ما تفتأ في اقتناص كل فرصة ، من أجل التجلي الحداثي ، الذي يتماهى في عمق تصوراته مع الأفكار الماركسية حيناً ، وبحجة توظيف آليات فنية خلاقة ، تسهم في فهم دواخل الإنسان ، أو مع أفكار علمانية حيناً آخر . يرى (محمد بنيس) أن :" الحداثة لم ترتبط ـ فقط ـ بالتحليل النفسي ، ولكن بالماركسية – أيضاً – وهما عنصران أساسيان في فهم الواقع ، والإنسان ." (46) هذا الفهم للحداثة وأدواتها جعلهـا آلـة تهجين ، وتدجين ثقافي ، وأيديولوجي – أو بالأحرى – جعل من قدرتها على

الولـوج في أعماق الثقافات –كوسيلة حوارية حداثية – الأقدر على كسر الأنساق المعرفية ، وتغيير شروطها ، ومرهوناتها دون أن نشعر بأن خطراً مهلكاً يحيط بإرثنا الديني والمعرفي، بـل وبحاضـرهما ، ومستقبلهما ولم يكن – يوماً- هذا الاختراق للحداثة أمراً اعتباطياً غير ممـنهج ، ولا فـردياً شذ عن سرب ثقافتنا ، ولا جزافياً مرهوناً بحظوظ فرص النجاح ، إذ تكشـف الشـهادات السابقة عن وجود كيان بل كيانات ذات قدرة عالية على ترصد وتفتيت وتدمـير الذات العربية والإسلامية ، ونفيها في عمق ثغرات ضعفها ، بل نفي مجرد التفكير فـي القـدرة علـى إعـادة تشكيلها ؛ لتغدو بجميع أثقالها الدينية والثقافية والتاريخية مجرد خـبرات. يقـول (إدوارد سـعيد):" إنني أشعر – بالأحرى- بأنني مهتم بقوة -وعلى نحو مبرمج - بما أدعوه النقد الدنيوي ، أو العلماني فلست في الحقيقة مهتماً بصياغة أفكار حول ما هو إلهي ، أو مقدس ، إلا من حيث هي حقائق علمانية وخبرات تاريخية ." (47)

هـذا الكـلام الـذي يختلف في ظاهره ، ويتفق في خروجه من صنو واحد مع (محمد بنيس) ، لا يقف عند قصدية خاضعة لاختيارات وفرضيات ، تقبل مقاصد التأويل المختلفة ، فللحداثـة اسـتراتيجياتها الهجومـية القصوى ، المتمثلة في تحويل الجواهر إلى علاقات ، والماهيات إلى سيرورات ، والغايات إلى وسائل مدهرنة كل ما هو مقدس ، ومؤرخنة كل ما هو أبدي ، ومبخرة كل ما هو صلب . إن فعلها أشبه ما يكون بمفعول السائل المذيب القادر علـى تحليل وتفكيك المواد ، ونزع الورود الجميلة التي كست العالم التقليدي وتفتيت الصور الرائعة التي علقت به ." (48)

تجاوزنـا لهـذا الفهم للحداثة ، وتعامينا عنها ، واحتماؤنا بثقافة التعالي الذي يسقط خـيار التفنيد والرد والمواجهة ، بحجة أننا ننعم بدفء تراث عربي عظيم ، ونستظل بظلال شـجرة ثقافـية وارفة ، وبثقتنا الهروبية ، والتأويلية التي تلازم عجزنا وتقصيرنا، وإن كان مبرراً بأعذار ، أقلها عدم رغبتنا في التهافت على التفاهات ، وإن فعلنا على استحياء كإجراء تعويضـي عن حالة الانهزام والانكسار ، أمام هذا الرعيل الحداثي اللاعن ، شعرنا أن هذا الرعـيل المسخ ، الذي جعل من مواقفه الاستلابية ،والاستغرابية ،والتبعية ، طللاً يجب على كـل من أراد أن ينظم -فرضاً- شعراً ، أو يكتب نقداً أن يقف عليه ، وأن يدعو شعبه وأمته للوقـوف علـيه ، مـثولاً لفروض التحضر ظاهراً ، وانسلاخاً من هويته باطناً ، مع رغبة إشـهارية عميقة رسمية ، دون تمثل حقيقي للفن وواجباته ، الذي يزداد تراجعاً، وتشويها ، في ظل واقع عربي مأزوم .

ولعـل الدهمـاء التي تحل بنا جراء الحداثة ، أن نجد أكثر النقاد انتصاراً ودعوة لها ، أشـدهم نقداً وضجراً منها ، وكأنهم أرادوا أن يقطعوا الطريق على كل من يفكر في نقدهم؛ لعـدم منطقيتهم واستلابهم وقهقرتهم ، ومبالغاتهم التعسفية ، وذلك ليبقى تنظيرهم للحداثة ، ونقيضـها هو الأجمع والأشمل ، لكل من أراد أن يؤسس للحداثة ، أو أن ينقدها مما يجعل لهذه التكيفات بريقاً عقلانياً حيناً ، وبريقاً حضارياً حيناً آخر .

يقـول (أدونـيس) -بصوت لا يخلو من حشرجة - تحقق قدراً كبيراً من الحق - إن صدق - :" هذه النصوص سجون ، وسجانون ، هذيان ، تنابذ ، وتلاعن، كلما دخل "جيل " إلـى ساحة الكتابة ، لعن أخاه ، بل لعن إخوته "الأجيال" التي سبقته ، أو التي تعاصره ثقافة لعن ؟ لم – إذن - لا تحل اللعنة ؟ بتأثير من الإيديولوجيات ذات الأصول الماركسية ، التي هيمنـت علـى الحياة العربية ، بدءاً من الخمسينيات ، أصبحت الثقافة تابعة للسياسة ، وهي سياسة كانت غالباً ، عمياء ."(49)

هـذا التصور الجوهري للحداثة ـ كما يراها الحداثيون في بلادنا ـ هو مناط التركيز، والـبؤرة التـي تـنطلق منها جميع الأنساق الحداثية ، بمتوالياتها ، وامتداداتها ، تـوالداتها ، وتعالقاتهـا ، وإجـراءاتها ، باعتبارها ـ جميعا ـً خطاباً هدمياً مركباً، موجهاً وفق مبادئ محددة ."ولعل ما يميز الحداثة هو نفورها من كل مماهاة ، وتنميط ، فالحداثة ثورة مستمرة ، وتجـاوز مسـتمر ، وحـركة أشكال لا تنتهي ، واعتدامية إيجابية لا قرار لها ، الحداثة في جوهـرها نفي مستمر ، وتجديد من أجل التجديد ، يغدو في إطارها كل ما هو صلب سائلاً ومتبخراً."(50)

هـذا التميز والتمايز للحداثة ـ طبقاً لمنظوراتها وشفراتها الداخلية والخارجية ـ تشكل أهدافاً جمالية مخاتلة ، ومراوغة ، لا تستند على أية درجة إدراكية ، يمكن أن تحقق لها أبنية معرفـية تفضي إلى توليد معنى قيمي ، يستطيع المتلقي- من خلالها - أن يستقبل شيئاً ما ، وفقـاً لما يحتويه أو ينتجه النص ، بل تمارس طقوساً استعادية وانسلاخية ، بشواغل تسترية ذهنية ، ولفظية ، وفنية فتجعلها مآل النص وأيقونته .

مـثل هذه التصورات لا تفرغ النصوص من طاقاتها الإبداعية ، وقدرتها على الاستثارة التخييلـية ، كأقصـى درجة من درجات التجلي التصويري ، الذي نستطيع أن نتبع جمالياته ومساراتها ، في الآداب الراقية فحسب ، بل تسعى إلى الإضمار التدميري حتى على مستوى الكلمـة ، إذ لا تكـاد تنجو كلمة بثقلها الدلالي ، والتاريخي يقول (سوسير) :" إن الكلمة لا

تكتسـب قيمتها إلا من بروزها كمعارض لكل ما هو سابق لها أو لاحق بها أو لمعارضتهما معاً، وهذا يلغي الوجود الجوهري للكلمة، ويؤسس العلاقة كقيمة أولى لنشوء وظيفة لها"[51]

نحـن إزاء صيرورة دلالية لا تتوقف ، حتى على المستوى الهدمي للكلمة ، فهي في حالـة ارتحالية بشكل دائم ، وتغير مستمر ، حينها يتعين علينا ، ألا نمارس بحثاً دلالياً ثابتاً لها ، باعتبارها ذات إرث لغوي ومعجمي متعدد المعاني ، فتجلياتها لا تنبع من فهم معناها، أو التثبت من دلالاتها ، أو كشف صورها ، بقدر ما تنبهم عنا فتصبح في قاع سحيق ، كلما أرادت أن تخرج لنا بمعنى أثقلها الغموض والتعقيد ، فتعود من جديد لقاع الرؤية ، دون أن تنتجها ، وهذا أمر جوهري وأيقوني في المكونات المرجعية الأساسية للحداثة ، يقول (شولو فسكي):" إن الفن اللفظي يجب أن يلجأ إلى تعقيد بنيته ، ويجعل الأشكال أكثر غموضاً حتى يزيد من صعوبة الإدراك ويطيل فيها ." [52] هذا المصير السلبي للكلمة على مستوى المعنى، لـم يعـتق أنظمـتها الصـرفية ، والنحوية ، للاستجابة لفروض الحداثة ، وهذا ما أوضحه (جـاكوب كـورك) بقوله :" لا بد من تحرير اللغة من العادات التقليدية ، ولا بد لها من أن تسـتهدف التعبير عن اللاإنسانية البحث للأشياء والمادية ، ولا يمكن تحقيق هذا الانعتاق إلا عن طريق الشعر اللا نحوي ، واللامنطقي الذي له حرية اختراق جوهر المادة ." [53]

إذا كـنا قـد سـمحنا لأنفسنا بأن نتهم عقولنا بالغباء تارة ، وبالجهل تارة أخرى ، وبالقصور من أجل أن نوفر أكبر قدر ممكن من الأعذار ، والمبررات للغموض والإبهام ، والتبعـية ، والابـتداع ، فـي شـعر الحداثة ، فإننا لا نستطيع أن نواصل طريقنا في هذا الاسـتغباء الاستبعادي ، حين يصل الأمر إلى كسر للأنظمة الصرفية ، والنحوية ، واعتماد مكسـوراتها بمشـروطات الحداثة ، كوسيلة استراتيجية تقربنا إلى الحداثة زلفى ؛ لأن هذه المتتالـيات الكاسرة والكسرية ، لن تقف عند حد في تحركها ، سواء أكان أفقياً أم رأسياً ، وإن كانـت هـذه السياسة الكاسرة مشفوعة بمبررات ، كالتي يطرحها (هوجو فريدريش) ، الذي طرح رؤية ،" تتمثل في رفضه للنظام الموضوعي المنطقي والعاطفي ، وقد يصل هذا الرفض إلى كسر الأنظمة النحوية في سبيل تفجير الطاقات السحرية الصوتية للكلمات ." [54]

وإذا ما وافقنا (جاكوب كورك) و(هوجو فريد ريش) وغيرهما كثر ،من أصحاب هذا الاتجاه ، فإن قدرتنا على التعرف على الفواعل ، والمفاعيل ، وغيرهما من الأنظمة النحوية، ستصاب باضطراب واختلال ، بل إن اختراقاً قاتلاً سيصيب السياج المنيع ، والسور الواقي، الذي حفظ تواصل التعبير ، حيناً من الدهر ، دون أن يستنفد أو يستهلك ، أو ينال من ثمرات الاخـتلاف بيـن المدارس النحوية المختلفة والمتعددة ، في الوقت الذي لم تلجم فيه مطلقات

البحث والاستقصاء في العصر الحديث ، وفق أسس علمية ومنهجية غير معطلة ، أو ساعية لإنكار الضوابط التي حققت قدراً كبيراً من المسلمات القاعدية .

علـى الرغم من ذلك ، فإن ثمة شعراء ونقاداً ، اتخذوا من دون القواعد العربية ، أنظمـة ومعايـير غربية وغريبة ؛ ليحققوا إدهاشاً مغرياً ، يستند في عمق جمالياته ، وفي أعلـى نداءاتـه على الموجات الارتدادية ، التي أعقبت الزلزلة العنيفة التي أركست الحالة العربية فجعلتها من توابعها؛ ولتؤصل مظاهرها في العجز العربي على جميع مستوياته .

وقـد حاولـت ، ومـا زالـت ثلـة من شعرائنا الحداثيين التعلق بهذه الآلية الفاعلة ، وحركيـتها الخصـيبة بهذه الكشوف الجمالية ، التي أسفرت عن محاولة الإطاحة بالأنظمة الـنحوية العربية ، وتدميرها ، وكان ذلك على مستوى الشعر ، باعتباره الوسيلة المثلى التي تحـتمل رؤاه الفنـية ، كسر الأنظمة النحوية وفقاً لقاعدة شاذة ، يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره ! فأصبحت عرفاً حداثياً إجبارياً- أحياناً- ووفقاً للمرجعيات الرواسي ، وجدلياتها التي أسسـتها الحداثة ، وعلى رأسها الهدم والتغاير ، فأصبح من الأغاليط التي لا تقبل الغفران ، أن يقـوم نـاقد بإدانة مثل هذه المرتكزات التي جاءت من خارج السياق الجمالي والتاريخي والفطـري للغة ، فعملت على انصياع أعمى لها ، ومن المفارقات المؤسية في هذا الجانب ، أن فروض الصياغة اللغوية والأدبية ، تاريخية – تراثية ، أم حاضرة ، أم مستقبلية ، والتي أخذ النقاد والشعراء ، والأدباء عموماً ، على عاتقهم مهمة حفظ اللغة من موجات ، الابتذال، والتسـطيح ، والتشويه ، والغربة ، أن بعضهم عقد العزم على أن يتتبع الضب الغربي ، في كل ما ينتجه ، وما يفرزه ، من إبداعات ، وصبوات ، بدأب ، وإصرار لا يعتريهما نصب ، ولا وصب !

وأحسب أن الطامحين للحداثة ، والطامعين فيها ، افترضوا في هذه المقاربة النقدية ، موقفـاً معاديـاً ، وهجوماً لا يبقى ، ولا يذر ، عليهم وعلى اتجاههم ، إن افترضوا ذلك ـ وأحسبهم من الفاعلين ـ فقد جانبهم الصواب ، وهذا دأبهم وديدنهم ، وكفى بهم من داء ، أن يصـموا آذانهـم ويستغشـوا ثـيابهم ، حين يتعلق الأمر برؤى صائبة ، تضطلع بالوظائف الحقيقـية للفن ، عبر أشكال ووسائل ، وآليات ، قادرة على النهوض بالفن من وهاده ، كما تسـعى هـذه الـرؤى الصـائبة عبر إمكاناتها ، وتقاناتها التراثية ، والمعاصرة أن تنـزع العصمة من أيدي أدعياء الحداثة ، وتكفهم عن العبث باللغة ، طلبا للاستسهال الذي يطمعون فـيه أن يحقـق لهـم إنجازات عظيمة ، هي أقرب إلى وصفها بالانحيازات بكل أبعادها ، وفروض ولائها للغرب ،من غربنة ، وسطحية ، وبهلوانية، وضحالة ...إلخ .

وحـتى لا يحدث انقطاع للموقف النقدي في هذه المقاربة النقدية التي سعت إلى كشف فداحة الواقع الحداثي بزيفه ، وطموساته ، وارتداداته ، واستهلاكاته ، وحجبه ، ومغايراته ، وبمـا هو الموقف النقدي صانع للرؤية ، باحث عن أدب أصيل - وإن كان حداثياً - منبعه القلـب ، ومن ذوق مرهف ، وعن وعي عقلي،قادر على استكناه الأشياء ، وسبر أغوارها، وتحلـيلها ، وفحـص ادعاءاتهـا ، واستثارة جمالياتها ، بغية الوصول إلى تحقيق الصيغة الأكـثر، والأقـدر في العملية الإبداعية ، فإن التألق الذي ننشده في الأدب ، لا يتعارض مع مفارقات الرفض ، أو القبول ، أو فرضيات التشكيل ، وإعادة الصياغة ، وفق قيم ، وأنساق معرفـية ، وعـبر معالجـات فنية ، تكفل رصيداً مؤسساً للجماليات وفواعها ، بحيث تحفظ للثوابـت حقهـا فـي التمثل الفني ، ودون أن تحول بين المتغيرات المعاصرة ، وحقها في التشـكل ، وبطـريقة تبرز تفاعلاتها وفواعلها ؛ لتسفر عن تجربة فنية خالصة ، مع إمكانية توحـد الثوابـت والمتغيرات ، توحداً لا ينفي القواسم المشتركة بينهما ، ولا يلغيها ، محققة دربـاً ونسيجاً فنياً راقياً ، يستعصى وصفه بالإنشائية العقيمة ، أو الجدلية الغثة ، أو التبعية المؤتلفة الابتداعية المرذولة.

الخـاتـمـة

تناولت هذه المقاربة النقدية للحداثة ، من حيث هي إشكالية لا تتوقف عن إثارة التساؤلات المسـتمرة ، وكل تساؤل منها لا ينبي عن كونه معضلة ، تحمل في أحشائها الكثير من الشوائب والرؤى المشبوهة ، التي تنطوي على فلسفة ما ؛ لتوفر لنفسها جدلاً ، ومحاجاة حول كل علائقها المتشـابكة ، والمعقـدة ، والمغامـرة دون أن تكون محملة بعناصرضمنية قادرة على الإنتاج أو الإبـداع ، ويـبقى التسـاؤل غير قلق ، ولا متوجس ، إذ يحيل -دائماً - لفروض، وجدليات ، وآليات، وامتدادات ، وتناقضات ، ترتبط بواقع ملموس ، لا يحتاج إلى جهد عقلي كبير لمعرفته ، تصـطرع فـيه الآراء والأشـكال اصطراعاً لا يتفق مع أي شكل من أشكال الاختلاف الطامحة للوصـول إلـى الحقـيقة ؛ لتكتسب مشروعية اختلافها ، وقدرتها على تحقيق ذاتها ، من خلال التغاير الاستراتيجي في بنية منهجها .

هل اعتمد الأدباء العرب المرجعيات الأجنبية أساساً في تأطير حداثتهم ؟ أم أن تلاؤماً وقع بين النخب الأجنبية وأندادهم في الأدب العربي ؟

لعل ردود الفعل حول طبيعة هذا التسآل ومشروطاته ، تشكل معلماً بارزاً في تجسيد حقيقة هـذا الإشـكال ، إذ يقـف طـرف موقفـاً رفضياً وفوقياً ، لكل محاولة تمارس حقها في كشف

الإنجـازات الوهمـية للحداثـة ، من خلال سبر أغوارها ، وتفكيك مكوناتها ، واعترافات بعض أعلامها الذين افتقدوا الإحساس الحقيقي بالأدب في ظل ممارساتهم لها .

مثلـت هـذه المقاربـة النقدية رؤية للحداثة الأدبية ، وكيفية مثاقفة العقل الأدبي العربي بـنظرياته ، وواقعـه وطموحاتـه ، وآلامه وآماله ، في الوقت الذي وهن فريق من أدبائنا ، في مواجهـة النخـب الأجنبـية ، التـي مارسـت دوراً استقطابياً كبيراً له ، إذ أخذ يكيف فروضه واختـياراته لهم ؛ لكي يسمحوا له بالبقاء في مستنقع الحداثة ، دون أن يشكو من أسانته فاصطبغ بأصـباغهم ، وعـزف علـى أوتـارهم ، دون أن يـزعجه نفور القبيلة ، من تلوناته وتحولاته المسـتمرة، ودون أن يشعر أن نغمات عزفه ، صراخ وعويل يكاد أن يصم الآذان بعد أن صمت أذنيه.

وبما أن غياب مثل هذه المقاربات النقدية ، يمثل انهزاماً ،وانكساراً ، واستسلاماً للفكر الحداثـي الغربي ، باحتمالاته ، و اغراءاته ، وإيجابياته ، وسلبياته ، وأثقاله ، وأتباعه من النقاد العرب ،جاءت هذه المقاربة ، ساعية وجاهدة أن تميز بين ما هو ذاتي أيديولوجي قومي ، بأثواب مزركشـة فنـياً ، لتحظـي بالقبول والترحيب ، وبين ما هو موضوعي يحترم الإنسان ، عقلاً ، وشعوراً ، تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً .

وبمـا أن بـيانات الحداثـة لا تتوقف عن الصدور ، ودعواتها لا تتوقف عن التنظير ، ورجالاتها لم يكفوا عن الاحتماء بشرها ، ودعوة الناس لها - إذاً - لامناص لنا من التصاب في مواجهـتها حيث إن التوقف عن ري مثل هذه الشجرة الطيبة من المقاربات النقدية التي تناهض كـل فكر دخيل ومشبوه - وإن ارتبط بالدين ، أو الأدب أو الثقافة - يمثل إرواء إضافياً لشجرة خبيثة وارفة الأوراق ، لا تحتاج منا لنمتهن عقولنا ؛ لتنهض متحدية قيمنا وديننا ، وثقافتنا وأدبنا، إلا بـالقدر الـذي تضـمن فـيه تجريدنا من مبادئنا ، ومثلنا ، وأخلاقنا ، وجمالياتنا ، التراثية، والحاضرة ، ومسخنا إلى شكول لا نجد فيها قبولاً بين ظهرانينا ولا عندهم.

لا غـرابة فـيما نذهـب إليه ، إذ يعلن أعلام الحداثة ، رغبة جموح في تحقيق قطيعة مع ذواتنا، واختزال قيمنا ،ومبادئنا ، وتراثنا في تقانات التغاير والتغيير ، والتناقض والتضاد ، تحقيقاً للمثل الماركسية ، وتعاليمها ، وإن لم يكن الأمر ،من أجل الماركسية ، كونها اتجاهاً عقدياً يستفز كثـيراً مـن العلمانيـن لشـعورهم بالعـري الأيديولوجي ، خاصة بعد سقوطها - على جميع المسـتويات- فمن أجل المختلف ، والمغاير ، الذي يضمن لهم حضوراً قوياً ، وثقة تملؤها حجب التأويل، والمناورة ، والانحراف ، والانزياح ، ومعرفة ، وثقافة متعالية ، لا تسمح لأحد بنفيها ،

أو إخضاعها للنقد ، الأمر الذي يفسر لنا جرأة كل من أراد استنطاق الخطابات الفنية ، والخروج بها عن مألوفها ومقاصدها ، وتجاوز قواعدها، وأنظمتها كالدعوة إلى كسر قواعد اللغة العربية .

هوامش البحث ومصادره ومراجعه

1- بـدر شـاكر السياب، كتاب السياب النثري، جمع وإعداد وتقديم حسن الغرفي (فارس– منشورات، مجلة الجواهر، 1986) صـ 173-174.

2- سعد الدين كليب: وعي الحداثة (دراسة جمالية في الحداثة الشعرية) منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1997، الفصل الأول، عن طريق شبكة الانترنت.

3-ألان تورين: نقد الحداثة، ترجمة: أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ،1997 ، صـ29.

4-أدونيس : فاتحة لنهايات القرن ، دار العودة ، بيروت ،1980 ، صـ321 .

5-كمـال أبـو ديـب : الحداثة / السلطة / النص ، مجلة فصول ، المجلد الرابع ، العدد الثالث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1984، صـ37.

6-كمال أبو ديب : م ، س ،صـ37 .

7-صـالح جـواد الطعمـة : الشاعر العربي المعاصر ومفهومه النظري للحداثة ، مجلة فصول ، المجلد الرابع ، العدد الرابع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1984، صـ12.

8-كمال أبو ديب : م ، س ،صـ43 .

9-عـبد الرزاق عيد : الحداثة / عقدة الأفاعي ، الحداثة "1" ، قضايا وشهادات ، مؤسسة عيبال للدرسات والنشر نيقوسيا ، 2 صيف 1990 ، صـ292 .

10-انطـون مقدسـي : قضـايا الأدب وضـرورة إنـتاجه مـن الكلام إلى الكتابة أو "الأدب والمجتمع التكنولوجي" الموقف الأدبي – العدد 76 – اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 1977 ، صـ18 .

11-عبد الرزاق عيد : م ، س ، صـ297 .

12-أدونيس: مقدمة للشعر العربي، دار العودة ، طـ4 ، بيروت ، لبنان ،1983 ، صـ118.

13-محمد برادة : اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحداثة ، مجلة فصول ، م4 ،ع3 ،1984، صـ 14 .

14-جان بودريار : الحداثة ، ترجمة : محمد سبيلا ، قضايا وشهادات ، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر ،نيقوسيا ، 3 شتاء ،1991 ، صـ390 .

15-خالدة سعيد: الملامح الفكرية للحداثة، فصول، المجلد 4، العدد 3 ، 1984 ، صـ25-26.

16-خالدة سعيد : الحداثة وعقدة جلجاس ، قضايا وشهادات ، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر ، نيقوسيا، 3 شتاء 1991 ،صـ84 .

17-أدونيس : مقدمة للشعر العربي ، م،س ،صـ313 .

18-أدونيس: النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب، بيروت، طـ1993،1، صـ94 –95.

19-أدونيس : النص القرآني ، م،س ،صـ101-102 .
20-شـكري عـياد : المذاهـب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين (الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، 1993) صـ17-18 .
21-عبد العزيز حمودة : المرايا المقعرة (الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، 2001) صـ25 .
22-عدنـان النحوي: الحداثة في منظور إيماني، دار النحوى للنشر والتوزيع ، الرياض ،طـ4 ،1993 صـ25-26
23-عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة (الكويت، سلسلة عالم المعرفة ،1998) صـ13-14 .
24-المرجع السابق ، صـ23.
25-عبد الرازق عيد : م،س،صـ301 .
26-ولـيد منير : محنة الشعر الحديث ، قضايا وشهادات ، الحداثة 2 ، مؤسسة عيبال للدراسات النشر ، نيقوسيا ،3 شتاء 1991، سـ215 .
27-عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة : م.س، صـ41 .
28-سامي سويدان : جسور الحداثة المعلقة ، دار الآداب ، بيروت ، 1997 ،صـ13 .
29-محمـد عـبد المطلب : مصادر إنتاج الشعرية ، مجلة فصول ، ع الأول ، م16 ، صيف 1997 ، صـ64 .
30-محمد برادة : اعتبارات نظرية ،م ،س ،صـ12 .
31-شكري عياد : م ، س ، صـ18 .
32-عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة ، م ، س ، صـ62 –63 .
33-المصدر السابق ، صـ34 .
34-جان بورديار : م ، س ، صـ390 .
35-إدوارد الخـراط : قراءة في ملامح الحداثة عند شاعرين من السبعينات ، مجلة فصول ، المجلد 4 ، العدد 4 ، 1984 ،صـ57 .
36-محمد حافظ : مدرسة فرانكفورت –جدلية الوحدة والتنوع ، مجلة المنار ، العدد 57 ، فبراير 1988 القاهرة ، صـ124-125 .
37-كمال أبو ديب : جدلية الخفاء والتجلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، طـ3 ،1984 ، صـ7-8
38-صالح جواد الطعمة : م، س،صـ12 .
39-عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة ، صـ63-64 .
40-مارشـال بـيرمان : حداثـة التخلف – تجربة الحداثة ، ترجمة فاضل جتكر ، دار كنعان للدراسات والنشر ، طـ1 ، 1993 ،صـ5-6 .

41-مـالكم بـراد بري وجيمس ماكفارلن : الحداثة جـ1 ، مركز الإنماء الحضاري ، طـ2 ،1995 ، ترجمة :مؤيد فوزي ، صـ52 .
42-أنطـون كمبانـيون : مفارقـات الحداثـة الخمـس ، ترجمة : محمد عضيمة ، دار المواقف للنشر والتوزيع، اللاذقية ، سوريا ، طـ1 ،1993 ، صـ70 .
43-أكتافيو باث : هل أصبحت الحداثة تراثاً أم هي تراث ضد نفسه ، ت : أسامة أسبر الحياة ، الأربعاء، 27 أكتوبر ،1999، 18، رجب 1420 ،ع 13381 .
44-عبد الرحمن العقود : الإبهام في شعر الحداثة ، (سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ،2002) صـ83 .
45-صـلاح بـو سريف : رهانات الحداثة وأفق لأشكال محتملة ، دار الثقافة ، دار البيضاء ، طـ1 ، 1996 ،صـ68 .
46-صالح جواد الطعمة : الشاعر العربي المعاصر ،م،س،صـ63 .
47-رايمونـد وبلـيامز: طرائق الحداثة ضد المتوائمين الجدد، ترجمة فاروق عبد القادر، (سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، 1999) صـ252 .
48-محمـد سـبيلا: الحداثـة وما بعد الحداثة، دار توبغال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، طـ1، سنة 2000 ، صـ43 .
49-أدونيس : النظام والكلام ، دار الآداب ، طـ1 ،1993، بيروت ، صـ95 .
50-محمد سبيلا : الحداثة وما بعد الحداثة ، م ،س ، صـ63 .
51-عـبد ا محمـد الغذامي : الخطيئة والتكفير ، النادي الأدبي الثقافي، طـ1، جدة، السعودية،1985 صـ39 .
52-عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة ، صـ128 .
53-جـاكوب كـورك : اللغـة في الأدب الحديث : الحداثة والتجريب ، ترجمة : ليون يوسف و عزيز عمانوئيل ، دار المأمون ، بغداد ، 1989 ،صـ114-115 .
54-صلاح فضل :نظرية البنائية في النقد الأدبي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، طـ2 ،1980، صـ351.